

«مروا من هنا...» لفادي توفيق في الهنغار..

آثار الحرب الماثلة على جدران المدينة

بيروت - مكتب «الرياض»، سيمون نصار

تصوير - شمعون ظاهر

■ «أبو الجماجم مر من هنا... اسم كان دائما كما غيره من الاسماء التي كان المحاربون يتكونون بها في زمن الحرب، أسماء وشعارات ومحاربين وقادة وقذارات لم تكن جدران منطقة في لبنان تخلوا منها. غير أن فادي توفيق في معرضه الذي أقيم في الهنغار التابع لمؤسسة «أمم» لم يلتفت الى هؤلاء (الأبطال) الوهميين الذين صنعوا أمجاد حروب الأهل والخلان في حقبة من تاريخ لبنان الحديث. إنما وارى من خلال الصورة والنص «المرافق» لها، أمجاد هؤلاء وغزل على نسج تمجيد الأحزاب والطوائف من خلال تمثين العرى السياسية للأهل المكتوبة على الجدران. الجدار، هنا، جزء من لعبة السياسة المحلية والدعاية التي تروج للطلانات الحزبية العقيمة. التي إن ألقت فلا تؤلف سوى ذاكرة مريضة مهووسة بالحروب. هكذا كنت أنظر في زمن السلم الى شعارات الجدران التي خلفها محاربو الأمم القريب.

أما فادي فهو يعيد التذكير بأن للسياسة الحزبية في لبنان من الدعاية ما يفوق الأساليب والتقانة العصرية. ففي وقت تنعدم فيه الثقافة الأهلية غير المسيسة حقيقياً، تتحول صورة الزعيم أو اسمه عنواناً لأيديولوجيا السياسة

الأهلية الضيقة. وتتحول شعارات الجدران الى دعاية مألوفة لتكريس نجومية داوية. ففي شوارع بيروت يعمل أحد قادة الحرب على الترويج لنفسه بصور تظهره على أنه رجل وسيم يضح رأسه بالشعر في حين أن هذا الشعر مستعار ومعروف أنه مستعار ومتداول كخبير بين اللبنانيين من أهالي المنطقة عند الشعرات المستعارة في رأسه في الوقت نفسه تختلط صور «الضاجة بالسامة المزيفة، والمستعارة بشعارات وكتابات يختلط فيها الولوج بالطرافة المدنية والجنس السياسي الطامح الى كسب القلوب.

والحق أن فادي توفيق، كاتب النص المرافق للصور، وحسام مشيمش المصور، التقطوا ليس فقط صوراً ضاجة بالمعاني السياسية وكتابات السياسيين المرتزقة في الراهن والواقعي، بل إنهما، معاً، ساهما مساهمة فعلية في نبذ الترويج للسياسي في مدها المنظور على مستوى الزعامة الأهلية وللأهلي في مدها الأبعد على مستوى المحاكاة الاجتماعية لعصر المدن. فالمدينة في مفهومها العصري والحديث ليست هي المدينة المخططة لعيش النخبة. إذ أن نخب المدن تتحرك ضمن إطار من البؤس المدني المتجرد. هؤلاء البؤساء الذين يصدمهم حال المدن لا يلبثون أن يكونوا صناع المدينة في المدى الأبعد

للمدينة.

فالذي يصنع المدينة ليس الأحياء الزاخرة بالترف العضوي، إنما ما يصنعه البؤساء الذين يغذون الحياة المدنية بواقر من صحتهم وبؤسهم وعرقهم الذائب في مخيلات جماعية لا تنتضب. على هذا، يمكن لهذا الفرض تذكيرنا بروايات حسن داوود القروي الذي ساعد في كشف عالم البؤس المتلاصق مع جدار الجامعة الأميركية في شارع (بلس) وبيّن كيف تحاك المدن وتختلط للحمة (برفع الام) الاجتماعية المسحوقة مع عالم مدني يدير ظهره للفقراء، على أن الفقراء، وهم الذين صنعت الحرب من جلودهم وعرقهم وبؤسهم من جشع النخبة السياسية، ليسوا في واقع الأمر سوى تلك الجدران الممتلئة بالكلمات التي تزخر بها الجدران المدنية. في بروكلين كما في سان جيرمان باريس أو أفقر أحياء نابولي نجد أن للفقراء القدرة الأشمل على التعبير عن مدينتهم العلمية من خلال الكتابة على جدرانها الملطخة بالأحلام. فشعار مروا من هنا... الذي نسجه فادي توفيق لمن وحي الدعاية السياسية ليس فقط صنيع حضارة نخبوية لا يأس بعشش في بواطنها، وإنما، هو، نسج من مروا فعلا بين المباني التي طاحتهم لتصنع منهم عمالا ومحاربين ومن ثم حالمين كبارا.

